فيكتوريان ساردو

نعت اباء باريس منذ ايام روائيًا من اشهر كتابها كان يراعهُ في طروسهِ كحسام نبوليون في حروبهِ . كلاهما ماضٍ فاتك ينهض بصاحبهِ من الصمة الى الرفعة . فساردو ضرب ببراعهِ هامة الفقر فاطاحها . ونبوليون ظمن بحسامهِ سحابة الشك عن شمس النصر فازاحها . ولو وزع اهل الادب مؤلفات ساردو وكتبهُ على شهور حياتهِ لاصاب كل شهر منها مؤلف جليل النفع جميل الاثر

عمل ساردو على انهاض فن التمثيل في النصف الاخير من القرن الماضي وكانت المراسح فقيرة بروايانها والروايات قليلة الحبل الروائية . حقيرة المواضيع . فانشأ لاهل باريس نيفًا وثمانين رواية طبقت شهرة بعضها الآفاق كفيودورا وتوسكا ومدام سان جين وجسموندا ولاسوريار فحملتها ساره برنار في صدرها وعلى لسانها الى مدن الغرب والشرق الزاهرة تحدث بفضل هذا الرجل على الادب . وقد شاهد اهل مصر منذ ايام اثرًا من آثارهِ اظهرتهُ جوقة سارة برنار على مرمح عباس فكأنها احبت ان تخلب عقول سامعيها ببراعهِ الساحر وتحدثهم بشروق شمسهِ قبل ان ادركها الغروب

كان والد ساردو معلمًا ريفيًا قدم باريس في طلب القوت فأنشأ في احد احيائها كتابًا للتعليم كان يختلف اليهِ بعض اولاد الفقراء فيكسب منهُ ما يسد بهِ جوع ذويهِ . وبينما هو يعالج داء الفقر عام ١٨٣١ رزقهُ الله ولدًا هو صاحب الترجمة فلم يخفف قدومهُ وطأة الاملاق عن ابيهِ . فتقلب في احضان الفقر ثلاثة اعوام اصيب في خلالها بمرض ضاعت حيلة ابيهِ واتعابهُ في معالجتهِ فارسلهُ الى جدهِ وبعد ان اقام في ضيافتهِ اعوامًا طويلة عاد الى اهلهِ فوجدهم على مثل ما كانوا فيهِ . فظل يتدرج في مراتب الفقر وينتقل في مدينة باريس من شارع الى شارع الى ان بلغ الخامسة عشرة من سنيهِ فدخل مدرسة هنري الرابع وخرج منها بعد اربعة اعوام المتهُ فيها الاشجار عن الاشعار وبقاعد الحدائق عن مقاعد المدرسة . ولما بلغ التاسعة عشرة انصرف الى مكاتب المدينة يطالع كتبها التاريخية بشغف يلتهب كالنار في صدرهِ . فتراوحت آمالهُ بين تعلم الطب والتعليم الذي كان يحضهُ ذووهُ على ولوج بابهِ . الاَّ انهُ رأى من فقر ابيهِ في احترافهِ ما بغَّضهُ بهِ . فولع بدراسة الطب عامًا ثم تركهُ . وطفق يطوف في شوارع باريس ومجتمعاتها واندبتها حتى اصبح ثقة بما يرويهِ عنها وعن ثورة عام ١٨٤٨ من النوادر والحوادث والاخبار وكان يكسب من الدروس التي يدرسها

والاعمال التي يقوم بها ما ينفقهُ على نفسهِ وحيدًا في غرفة ضيقة بعد ان ترك اهلهُ فرارًا من التثقيل عليهم بطعامهِ ولباسهِ . ويشتغل بكتابة رواية دعاها (كهف الظلبة) فلما عرضها عام ١٨٥٤ لتمثيل على مرسح الاوديون كان فشلهُ كبيرًا . ولولا بقية ابقتها الهمة والثبات في صدرهِ لقضى حبوط روايتهِ على قحة آمالهِ . فعاود الكرة بعد ستة اعوام على الاشتغال بتأليف الروايات فافلح وكانت رواية (بات ده موش) فاتحة اسعادهِ في سنة الستين بعد ان اشقاهُ القدر ٢٩ عامًا لم تكشف عنهُ فيها غمامة الفقر ولا ابتسم لهُ ثغر الدهر . فواظب منذ ذلك الحين على وضع الروايات التمثيلية والاشتغال بما يعلي شأن الادب المرسحي في وطنهِ الى ان توفاهُ الله . فطرق كل ابواب التأليف وكتب روايات حيلية من نوع الفودفيل كرواية (بات ده موش) وروايات محزنة كرواية (نوزتيم) و(سيرافين) و (المنزل الجديد) وروايات مضحكة انتقادية كرواية (الافاضيل بنواتان) فانها اكسبتهُ ٣٠٠ الف فرنك و (قرويونا) وروايات تاريخية كرواية (باتري) و(الحقد) و(توميدور) التي انتقد فيها اعمال الثورة فمنعت الحكومة تمثيلها اثر ما كتبهُ المسيو كلنسو رئيس الوزارة الحالية منادياً الحكومة فيها باحترام مبادىء الثورة وقال " ان الثوار والاحرار متضامنون" وقد مزج التاريخ بالمزل في رواية (مدام سان جين) التي اكسبتهُ ٢٠٠ الف فرنك والف روايات قضائية كرواية (فيريول) وانشأ لساره برفار عدة روايات اشتهرت بها اهمها (فيدورا) و (تيودورا) و (توسكا) و (كليوباتره) و (جسموندا) و(لاسورسيار) و (حادثة السم) وعلى الجملة فانهُ لم يدع بابًا في التأليف المرسحي الاَّ ولجهُ فشاد بيراعهِ مجدًا للمرسح الفرنسوي يدوم على توالي الاعقاب

ولقد ارادت الحكومة الفرنسوية ان تتوج هذا الرجل الذي عرف الملكية ١٧ عامًا والجمهورية الثانية ثلاثة اعوام والامبراطورية الثانية ١٩ عامًا والجمهورية الثالثة ٣٧ عامًا فعاصر اربع حكومات وشاهد جيلين من الناس وكتب ثمانين رواية فانعمت عليهِ عام ١٩٠٦ بوسام جوقة الشرف من رتبة جران اوفيسيهِ فاسعدهُ الادب على كسب الشهب ونيل الرتب

ومما يؤثر عنهُ حينما امسك القلم بخناقهِ في صغرهِ انهُ قصد ترك باريس الى العالم الجديد فبرح منزلهُ الى المحطة سائرًا بمنزل يهدمهُ البناؤون فسقط حجر منهُ على عامل كان قريبهُ لقتلهُ فنظر اليهِ ساردو وقال

" ان لي في باريس املاً لم يأفل نجمهُ وحياة لم تغب شمسها . فوالله لأقيمنَّ فيها ولأبلغن مأربي برأس هذا القلم "

ولقد اقام فيها فالف وكتب ونال ما اراد

وخلّفت في باريس ذكرًا كأنما تداولـــ سمع المرء انقلهُ العشرُ

نصحح فيه قول ابن الوردي

لا تقل قد ذهبت اربابهُ كل من سار على الدرب وصل

هذا ما نشرناهُ في المقطم عن هذا النابغة ونزيد عليهِ انهُ احتفل بدفنهِ في ١٢ نوفمبر فابنهُ المسيو جاستون دو سرج وزير المعارف باسم الحكومة الفرنسوية والمسيو بول هرفيو باسم نقابة المؤلفين الروائيين والمسيو البرفاندل باسم المجمع العلمي الفرنسوي

الوراثة

ناموس الردة او الرجوع الى الاصل

يراد بالردة او الرجوع الى الاصل (reversion) ظهور صفة في الحيوان او النبات كانت في اسلافهِ الاقدمين ثم فقدوها. ويذهب بعض العلماء في سببها ان تلك الصفة كمنت في اعقاب الذين كانت تظهر فيهم اولاً الى ان حرّكها محرّك او قوّاها مقوٍّ فظهرت ثانيةً في نسلهم. ويذهب غيرهم الى ان ظهورها ثانية لا يستلزم انها كانت كامنة بل قد يكون سبب ظهورها ان الدواعي دعت لها من جديد كما دعت لظهورها في السلف

وقد انتبه الناس الى الردة او الرجوع الى الاصل من قديم الزمان ذكر فلوطرخس المؤرخ ان امرأة يونانية ولدت طفلاً اسود فاتهمت بالزنا وأُتي بها الى المحكمة فادّعت ان احد اسلافها منذ اربعة اعقاب كان حبشيًّا. ومن رأي الاستاذ طمسن مؤلف كتاب الوراثة الذي اشرنا اليهِ في عدد سابق ان دعوى هذه المرأة غير صحيحة ولكن ذكر فلوطرخس لها يدلُّ على تسليم الناس حينئذٍ بناموس الردّة او الرجوع الى الاصل

وكثيرًا ما تولد المهار وعلى اكتافها خطوط سود ورجوعًا الى الاصل المتولدة منهُ. ويتولد من النباتات البستانية كالخس والكرنب نباتات تشبه البرية منها رجوعًا الى اصلها

وقد علل بعضهم ذلك بقولهِ ان الدقائق الكثيرة الحاملة للصفات الوراثية قد يكون بينها دقائق قديمة انتقلت من شخص الى آخر وهي ساكنة لا تثمر ولا تظهر فعلها لانهُ لم يتفق لها ما يدعو الى ظهور فعلها ونموها ثم يتفق لها ذلك اما بسبب المزاوجة او بسبب الجهاد